المحور الأول: خصوصية البحوث الكمية في الدراسات الإعلامية والاتصالية:

المحاضرة الأولى:

تطور الاهتمام بالبحوث الكمية في الدراسات الإعلامية:

شهد القرن التاسع عشر مجموعة من التغيرات، منها تلك التي طرأت على المنظومة الفكرية السائدة، قد أفرزت جملة من النتائج لصد من أبرزها ظهور العلوم الاجتماعية في المجتمعات الغربية، تلك العلوم التي ظهرت ظهورا متتابعا ومتسارعا من أهمها الأنتروبولوجيا والاقتصاد وفلسفة القانون والعلوم السياسية وعلم النفس وعلم الاجتماع، وغيرها، وقد اعتمدت هذه العلوم في البداية على مناهج لغوية وتاريخية استبطانية في الغالب، ثم بدأت تتأثر بالتقدم الهائل للعلوم الطبيعية نتيجة تبني هذه الأخيرة للمنهج الوضعي، وأهم عنصر أثرت به العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية هو المنهج العلمي المتمثل في المنهج التجريبي، ولما كان هذا المنهج هو سبب التطور الهائل الذي بلغته العلوم الطبيعية، فاعتقد الباحثون في حقل العلوم الإنسانية من أنصار الاتجاه الوضعي أن هذه العلوم لا يمكنها أن تصل إلى درجة العلمية إلا باعتمادها نفس المنهج المعتمد في العلوم الطبيعية، ولقد كان في طليعة هؤلاء الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي "أوغست كونت" الذي طالب في إطار علم الاجتماع بضرورة استخدام مناهج علو الطبيعة في دراسة الظواهر الاجتماعية.[1]

ولذلك سادت ميدان البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاجتماعية خلال القرن العشرين مناهج بحثية تعتمد البيانات الكمية الميدانية والتحليل الإحصائي لهذه البيانات، وانصب التنافس في كسب المترلة العلمية على درجة التعقيد والتفصيل في طرق جمع تلك البيانات وكيفية تحليلها،

وحققت تلك المناهج انتشارًا واسعاً بصورة توحي بأن من لا يلجأ إلى هذه الأساليب المعقدة لا يكون معدًا إعداداً جيدًا في أساليب البحث العلمي.[2]

وقد اتبع البحث الإعلامي مراحل تطور المناهج السوسيولوجية السائدة في العلوم الاجتماعية، ومع ظهور الطباعة خلال الثلاثينات من القرن العشرين بدأت مسوح القراءة، وقد لوحظ الاهتمام بالبحث الكمي، حيث ارتفعت مكانته خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، ففي سنة 1957 نشر "ولبور شرام" مقالة عن مناهج البحث لدراسات منشورة في دورية "Journalism Quarterly" في الفترة بين منتصف الثلاثينيات ومنتصف الخمسينيات، وقد وجد أن 10% فقط من هذه المقالات منشورة في الفترة من 1937-1942، وقد اعتمدت أساسا على البيانات الكمية، وفي الفترة من 1952-1956 جاء نصف المقالات المنشورة ضمن البحوث الكمية.[3]

ومنه فهذه المرحلة كانت مرحلة المحاكاة لمنهج العلوم الطبيعية، لأن الباحثين في العلوم الاجتماعية والإنسانية بصفة عامة كانوا يعتقدون أن العلمية تكمن في استعارة منهجية العلوم الطبيعية، والهدف هنا هو إيجاد العلاقة السببية الحتمية بين متغيرات الفرضية، وبالتالي كانت المنهجية التي وضعها "دور كايم" في دراسته لظاهرة الانتحار، والتي اعتبر فيها أن هناك دليل نموذجي لكل بحث سوسيولوجي بحيث ينطلق هذا البحث من مسلمة بديهية، وهي اعتبار الظاهرة الاجتماعية شيء، لذلك يمكن القول أن مقاربات الحداثة خلال هذه المرحلة استخدمت البحوث الوصفية، فهي تهدف إلى اكتشاف الوقائع وعرضها، أو إلى وصف العمليات الاجتماعية، كما أنها استخدمت

مناهج كمية خاصة في البحوث المتصلة بالعلاقات الاجتماعية لذلك فهي تعتمد على الأساليب الكمية الرئيسية في جمع البيانات الميدانية مثل الاستبيانات والمقابلات المقننة.[4]

وقد قام كل من "فولكينر" (Faulkner) وسبكتور (Spector) بإجراء دراسة مقارنة عن سياسة النشر في خمس دوريات سوسيولوجية كبيرة في الفترة من 1973-1978، تبين أن اثنين منهما عنوانهما "American Sociological Review" و" American Journal of Sociology" يندرج بهما 10% من المقالات المنشورة ضمن البحوث الكيفية، ومعنى هذا أن الاتجاه الكمي ظل مسيطرا خلال هذه السنوات، بينما حدث التحول إلى الاتجاه الكيفي مع نمو الاتجاهات النظرية في السبعينيات من القرن الماضي، وتبع ذلك ظهور دوريات جديدة في هذا المجال، اهتمت بعلم الاجتماع التفسيري، مثل مجلة الحياة الحضرية "Urban Life" والتفاعلية الرمزية وعلم الاجتماع الكيفي " Qalitative Sociology".[5]

حيث ذهب رواد الوضعية إلى إمكانية تطبيق المنهج العلمي المعمول به في الظاهرة الطبيعية – المنهج التجريبي– على الظواهر الاجتماعية منوهين بذلك بالدقة التي وصلت إليها علوم الطبيعة وعليه فإنه ولمدة طويلة ساد الاعتقاد أن نتائج البحوث السوسيولوجية تكون أكثر مصداقية ودقة إذا سارت على النحو الذي سطرته لها علوم الطبيعة من قبلها، فما يضمن الدقة في الوصول إلى تفسير علمي للظاهرة الاجتماعية المدروسة والتنبؤ في حقها هو إمكانية الاعتماد على صيغ رياضية من أجل فهم الواقع الاجتماعي، وذلك بترجمة المسائل العلمية إلى لغة رمزية منطقية رياضية ومعالجتها من خلال هذه الوسيلة ثم نصل إلى القدرة على التوقع أو التنبؤ العلمي كغاية تبحث عنها العلوم الاجتماعية

كما سبقهم في ذلك علماء الطبيعة من قبلهم، وربما هذا ما دفع بإيميل دوركايم إلى إبراز قاعدة أساسية من قواعد المنهج حينما يقول "ينبغي اعتبار الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء بمعنى التخلي عن الأفكار والأحكام المسبقة ويجب ملاحظة الظواهر الاجتماعية من الخارج واكتشافها مثل اكتشافنا للظواهر الطبيعية.[6]

ومن هنا يمكن القول أنه لم يكن هناك أي اهتمام ملحوظ بالبحث الكيفي في الماضي، حيث كانت هناك فئة قليلة اعترفت بأهمية المناهج الكيفية، ويرجع ذلك إلى تميز المنظور الوضعي خلال هذه الفترة، وقد بدا ذلك واضحا في مقدمة كتاب لأحد الباحثين المهتمين بدراسة الحقائق الموضوعية عندما قال: "لكي تكون علميا في أبحاث الاتصال يجب أن تستخدم بالطبع البحث الكمي".[7]

إلا أنه في فترة الثمانينات ظهرت اعتراضات على استخدام المنهج الكمي، حيث وردت في كتب عديدة من مناهج البحث، وخصص كل من ستمبل "Stempel" ووستلى "Westely" سنة 1981 في مؤلفهما ثلاثة فصول تتحدث عن مناهج البحث الكيفي، إضافة إلى ماكويل "Mcquail" سنة 1987 بأهمية استخدام المناهج الكيفية، وعلاوة على ذلك ذهب أندرسون "Anderson" سنة 1987 أبعد من ذلك في كتابه الجديد عن المناهج، حيث خصص نصفه عن المناهج الكيفية.[8]

ويرجع بعض الباحثين أسباب تطور الاهتمام باستخدام البحوث الكمية في الدراسات الإعلامية إلى أهداف التعرف على أهم وسائل الإعلام من حيث حجم جمهورها ودراسة أسباب إقبال الجمهور أو إحجامه عن وسيلة إعلامية، خاصة مع تعدد وسائل الإعلام وتعدد أنواع المادة

الإعلامية واختلاف وسائلها وتنظيمات مؤسساتها، مما ينتج عنه آثار عديدة، وهذا يتطلب استخدام الوسائل الكمية متمثلة في الإحصاءات المتعددة، كما أن البحوث الكمية تتميز بالاقتراب من الدقة التي تمتاز بها الرياضيات، فهو وسيلة مهمة لزيادة كفاءة التحليل ودقته وشموله وتعبيره بشكل صحيح عن المضمون، وابتعاده عن التخمينات والانطباعات الذاتية للباحث، ويساعد أيضا على تقديم المعلومات في شكل جداول، مما يؤدي إلى سهولة الاطلاع عليها، وإدراك النتائج بشكل مبسط وواضح.[9]

وخلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين تحول عدد من الباحثين الضالعين في مجال المنهجية الكمية في الولايات المتحدة وأوروبا، بعد ما قضوا سنوات طويلة في تدريس وممارسة البحث الكمي، إلى المناهج النوعية بصورة ملحوظة، لقناعتهم أن المناهج البحثية النوعية تحقق اجتماعياً وتربوياً ما عجزت عنه البحوث الكمية، وفي إطار دراستهما للتطور التاريخي لمناهج البحث في العلوم الاجتماعية، يطلق كل من جوبا ولنكلون على المناهج البحثية النوعية "الجيل الرابع لمناهج البحث والتقويم"، حيث يريان أن هذا الجيل من المناهج النوعية يقدم لنا دراسات شمولية للظواهر الاجتماعية، بما تحويه من أبعاد إنسانية وثقافية وسياسية، من خلال البيئة التي تظهر فيها.[10]

هوامش ومراجع:

1- سليم العايب: تنظير معرفي للمقاربة الكمية والكيفية في العلوم الاجتماعية، مجلة آفاق لعلم الاجتماع، جامعة البليدة2، المجلد 2، العدد 2، ماي 2013.

2- سيدي عابد عبد القادر: دقة (مصداقية) نتائج البحث العلمي في دراسة الظاهرة النفسية بين المنهج الكمي والمنهج الكيفي (دراسة ميدانية بجامعة الشلف)، مجلة التنمية البشرية، جامعة وهران2، العدد 10، مارس 2018.

3- عائشة كعباش: اتجاهات بحوث الإعلام الإلكتروني في الجزائر، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية – جامعة الشهيد حمة لخضر -الوادي العدد 15 ، مارس 2016.

4- عواطف عطيل لمولدي: مناهج البحث السوسيولوجي وطرق استخدامها، مجلة البحوث والدراسات، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد 15، العدد 2، صيف 2018.